تكلموا به، فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ»[1].

أقول: وكلام الفراء هذا مفيد جداً ذلك أنه من النحاة الأوائل، وهو وإن كان من أوائل الكوفيين فقد أخذ عن كبار البصريين، وليس بصريّ من الأوائل إلا وهو مكبر للفراء منوه بعلمه وسبقه.

ومما يؤخذ على أوائل البصريين أنهم استبعدوا الحديث الشريف في استشهادهم بحجة أن الحديث يشتمل على قدر كبير روى بالمعنى ولم يضبط بلفظه، وأن طائفة كبيرة من المحدثين لم يكونوا عرباً ينتمون إلى أصول عربية هي موضع ثقة في عربيتها. وهذا نظر غير سديد، ذلك أن رجال الحديث قد تحروا التدقيق والضبط، وتشدّدوا في ضبط الحديث، وأخضعوا هذه اللغة الشريفة إلى ما دعوه «الجرح والتعديل»، الذي تناولوا فيه رواة الحديث، فكان لهم فيه موازين دقيقة، ومن هنا لم يكن للنحاة أن يرفضوا هذه اللغة التي بولغ في نقدها وضبطها والوصول بها إلى الكمال في الصحة والصواب. ولقد مرّ بنا أن الثقات من النقاد ومنهم الجاحظ قد أثنى على جماعة من أهل العلم من الموالي كالحسن البصري وعمرو بن فائد الأسواري وغيرهما، بحيث اطمأن النحاة أنفسهم إلى علمهم فصح عندهم الاعتماد عليهم كما صح الاعتماد على سيبويه مثلاً وهو غير عربي.

ولا أدري كيف أغضى أولئك النحويون عما قيل في غير واحد من أهل العلم من رجال الحديث، ومنهم الشعبي المشهور الذي قال فيه ابن عياش الكوفي لمناظره في حضرة أبي العباس: «وأين أنت عمّن لم تر عينك مثله في زمانه، من أصحاب النبي، ولا أحفظ لما سمع، ولا أفقه في الدين، ولا أصدق في الحديث، ولا أعرف بمغازي النبي - ﷺ - وأيام العرب، وحدود الإسلام والفرائض، والغريب، والشعر، ولا

(١) المزهر ١/١٣٣.